سورة الحج(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ①﴾ [الحج] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ①﴾ [الحج] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقاية ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقةَ لك به .

---

(1) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قاله ابن الفرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/٣٢) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٦/٤٥٢٣) وقال : « وهذا هو الأصح » .

قال الغزنوى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكياً ومدنياً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٢٣) .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] ومرة يقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..﴿٢٤﴾﴾ [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شيء واحد . معنى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..﴿٢٤﴾﴾ [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعْل الأمر وتَرْك النهى .

وقوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] لأن لله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِّ الله نقول : اتقِّ النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿١﴾﴾ [الحج] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّى للرعاية وللتربية ، فالذى يُحذِّرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلَى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جـذْبه بداية فسوف تجد مـجهوداً ومشـقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشـديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحـركة كثيراً فقال : ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾[الواقعة]

ويقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حـتى تبتلع بعض القرى ، فـهذه مجرد آيات كونيـة تثبت صـدْق البلاغ عـن الله ، وتنبهك إلى الـزلزال الكبيـر فى الآخـرة ، إنه صورة مصغـرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغـتر بسيادتنا فى الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندمـا حـدث زلزال « أغـادير » لاحظوا أن الحـيـوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها مـا خرج إلى الخلاء ، فأىُّ إعلام هذا ؟ وأىُّ استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟

إن فى ذلك إشارة للإنسـان الذى يعتبـر نفسه سـيد هذا الكون : تنبَّه ، فلولا أن الله سَيَّدَك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنمـا هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : فُتِّتَتْ تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/ ٦٦] .

لذلك وُصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتحتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ۝٩٧﴾ [الأنبياء] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة]

فمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن نُخرج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذى نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة اسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً فى النار فهذا الإخبار صادق من الله فعلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها ـ وهذا مقصور على أهل النار ـ فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣

---

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى ، وقيل : تلهو ، وقيل : تسلو والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٣٦] .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهولٍ رآه فتنشغل بما رآته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول - إذن - سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هول هذا الذى يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنهما في حاجة إليه ، ولا هو في حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ .. ۝٢﴾ [الحج]

والمرضعة تأتي بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هي التي من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهي التي تُرضِع فعلاً ، وتضع الآن ثديها في فَم ولدها ، فهي مرضِعة . فانظر - إذن - إلى مدى الذهول والانشغال في مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا .. ۝٢﴾ [الحج] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى في تكوينها الجسماني ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى .. ۝٥﴾ [الحج]

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه - إذن - مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْعُ هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله في ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً ۝١٠١﴾ [طه] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشيء الثقيل الذي لا يُطيقه ظهرك ، أمَّا الحَمْل بالفتح فهو : الشيء اليسير تحمله في نفسك . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ ... مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشىء الذى تطيق حَمْله ويقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ [الحج]

سكارى : أى يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْدُ ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ(١) مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ ﴾

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ۝٣ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٦/٨] . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٧) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٣) ﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. (١٢٥) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.. (١٢٥) ﴾ [النحل]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥) ﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿ وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى فى الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس]

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن علْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٥٤٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوَّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجاة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٢٥١/٣] .

« تقتله الفـئة الباغـية »[1] وأخذوا يتـركون جيش مـعاوية واحـداً بعد الآخر ، فـذهب عمـرو بن العاص إلى مـعاوية وقـال : لقد فـشَتْ فى الجيش فـاشية ، إنْ هى اسـتمرتْ فلن يبـقى معنا رجل واحد ، فـقال معـاوية : وما هى ؟ قال : يقـولون : إننا قتلنا عمـاراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحـتار مـعاويـة ثم قال : قُلْ لهم قـتله مَنْ أخرجـه للقتـال[2] ـ يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيـدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فـمَنْ قتـل حمـزة بن عـبد المطلب ؟ أى : إن كـان الأمـر كمـا تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجـدل عن علم ، والعلم قد يـكون علماً بدهيـاً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليـه . أو علماً عقلياً اسـتدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فـيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغيـر حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتسـاءل : كيف عـرف الطفل الصـغير أن الحـيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بـالمكان شىء إلا إذا خرج مـا فيـه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة ـ رضى الله عنهـا ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمـار : « تقتلك الفئـة الباغية » أخـرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتِل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : مـا شانك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عـمار ، فماذا ؟ قـال عمرو : سمـعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفـئة الباغيـة . فقال له معـاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلنـاه إنما قتله على وأصـحابه ، جاءوا به حـتى ألقوه بين رماحنا ـ أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمى فى الكون مبنيٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشيء على شيء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربي حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما علْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③﴾ [الحج] فى النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم فى الوجود ، وفى الوحدانية ، وفى البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③﴾ [الحج] أى : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ؛ إما من النفس التى لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذى يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك فى شراكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس بالشر ، فمَنِ الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إبليسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، أمَّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك فى هذا الشىء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطِعْهُ في معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر في نفسك ، فإنْ كان الذي يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها : فالعلم يُراد به البدهيات ، والهدى أي : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتي هي أحسن .

ومعنى : ﴿ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلي أعلى منك .